العشق في زمن الحرب

بدري نوئيل /العراق

بعد معركة حربية قتالية دخل المقاتلين المدينة العتيقة، للبحث عن الجرحى والشهداء الذين سقطوا في المعركة. التي أصبحت أطلالا، بيوتها محترقة ورائحة الموت والبارود في شوارعها، وآثار الدمار والخراب في كل زاوية.

أحد المقاتلين شاب رشيق القوام وجريء، اندفع بسرعة نحو منزل والده وبيت ذكرياته، أنتابه الذعر والخوف لمنظر المدينة كأنها شهدت إعصارا، شعر أنه أصبح بعيدا عن اخوانه المقاتلين، ولا مجال أمامه للتراجع لأنه سيقع في كمين أو يصيبه قناص مختفي في أحد البيوت المهجورة، توقف وحضن بندقيته وأسند ظهره بسياج منزل متهدم، يرى أصدقاءه المقاتلين يلوحون له أن يحمي نفسه، أو يتراجع للمنطقة الآمنة، ويسمع بين الحين والآخر صوت تراشق الرصاص قادم من مجهول، ويتمتم مع نفسه: (سَنرجعُ يوماً إلى حيِّنا، ونغرقُ في دافئاتِ المُنى، سنرجعُ مهما يمرُّ الزمان).

بعد دقائق تقدم في خطى مترددة، يتحسس الشارع المقفر بهدوء وحذر، انطلق يهرول بهدوء، حنى ظهره، دافن رأسه بين كتفيه وأصبعه على زناد بندقيته، توقف عند سياج منزل مهجور متهدم لكي يأخذه مخبأ له، سمع صوت أنين المتوجع من الألم يئنّ أنينا خافتا، اشتدّ فزعه، كانت لحظات قاسية ومريرة، يتمتم:

ـ يا الله أنقذني من هذا الموقف العسير.

تكرر سماعه للصوت ولكن هذه المرة سمع صوت خفيفا هادئا ينادي عليه قائلا:

ـ أنتَ يا مقاتل.

أخذ قلبه يخفق، وتراجع إلى الوراء كالمصعوق، انحبس صوته، قائلا مع نفسه:

ـ لن اخاف الشهادة، لكن اخاف أن أقع ضحية وفريسة نتيجة استعجالي، والابتعاد عن المقاتلين.

سمع الصوت مرة أخرى يكلمه، وكان صوت حنون قريب من مكان وقوفه في الشارع:

ـ في ليلة من الليالي، حل الظلام معلنا عن ظلامه، اختفى نور القمر بالغيوم السوداء القادمة على المدينة، خيّم على المكان إعصار الحزن والأسى، أصبح اليوم سكان مدينتنا الجميلة لاجئون ونازحون تائهون ضائعون في السهول والوديان والجبال وعلى قارعات الطرق وأرصفة الشوارع.

تشجع والتفت نحو الخلف، رأى فتاة شاحبة الوجه جميلة الطلعة جريحة، يظهر الألم على وجهها، مطروحة على الأرض خلف سياج المنزل.

رفع بندقيته بوجهها وسألها باندهاش:

ـ مَنْ أنتِ؟

بصوت هادي وحزين قائلة:

ـ أنا بنت هذه المدينة التي أصبحت كنائسها ومساجدها مهجورة ومحروقة، ومعابدها مهدمة، مآذنها باكية، قبابها دمرت.

سألته بصوت حزين:

ـ مَنْ أنتَ؟

أجابها بسعادة:

ـ أنا أبن هذا الوطن الذي أحببته حبا لا يوصف، وتربع في قلبي، وجعلت حبه وساما على صدري، وطني يا أغلى من عمري، فقلبي لن يضم إلا حبه وصدري لن يضم إلا شوقه وحنانه.

اقترب منها أكثر وشعر أنها تستغيث، رفع رأسها وبلل شفتيها ببعض قطرات الماء التي معه بحنان قائلا:

ـ تعالي معي لأخذك الى أقرب مستشفى.

بحزن شديد قائلة:

ـ لقد مضى عليَّ ثلاثة ايام وأنا جريحة، ولا أقدر أن امشي.

بثقة عالية قائلاً:

ـ سأحملك على ظهري وأوصلكِ إلى أصدقائي المقاتلين.

امتلأت عيناها بالدموع قائلة:

ـ سيقتلوننا القناصة أو نقع في كمين للمسلحين.

بجرأة قائلاً:

ـ لا تخافي المسافة بينا وبين أصدقائي قريبة.

كان يحمل بعض الضمادات وضعها على جرحها، سألها مستفسراً:

ـ لماذا أنتِ هنا؟

أجابت بنبرة باكية:

ـ أنا إحدى البنات اليزيديات السبايا، المخطوفات من قبل المسلحين، باعوني مرتين، وأثناء هجومكم

على المدينة، هربت منهم ولكن انفجر فيَ لغم أرضي، زحفت بهدوء وإحتميت خلف هذا السياج.

لقد كانت إصابتها في قدميها من شظايا اللغم ولم تكن قاتله، لكنها تحتاج الى علاج قبل أن يزداد الألم وتصاب بمضاعفات لا تحمد عقباها، ولا تستطيع المشي والنهوض، فقد أصبحت ساقاها غير قادرتين على حملها.

غمرتها سعادة لا توصف عندما حملها على ظهره، ظهرت على شفتيها ابتسامة هادئة، شجّعته بأطيب الكلام داعية له بالتّوفيق والوصول إلى أقرب مساعدة، خرج نحو الشارع متجها نحو المقاتلين أصدقائه، كانت لحظات قاسية ومريرة، ولكن العناية الإلهية كانت سببا في إنقاذهما من هذا الموقف العسير، اقترب من المقاتلين حملوها ونقلوها إلى الوحدة الطبية.

بعد عشرة ايام أعلمه قائد الكتيبة أن الجريحة التي أنقذها بخير، وترقد في المستشفى تتلقى العلاج، طلب المقاتل من القائد إجازة للذهاب للمستشفى لزيارتها.

في اليوم التالي ترك جبهة القتال متجها نحو المستشفى، وصل غرفتها التي تقيم فيها وجدها تقف أمام النافذة تنظر للخارج كأنها متوقعه مجيئه، وقف عند باب الغرفة مترددا خائفا من الدخول، عندما رآها مبتورة أحد الساقين، التفت نحوه مبتسمة تعلو وجهها

علامات الغبطة

والسعادة قائلة:

ـ توالت الأيام متثاقلة متباطئة وارتسمت علامات الحيرة على وجهي، وأحس بندم لقد نسيت أن أسألك ما أسمكَ، لو كنت أقدر أن أهديك قلبي لنزعته من صدري وقدمته إليك، وأسجل أيام عمري باسمك، أنتَ هدية لي من السماء عندما وصلتَ إلى المنزل المهجور، وانقذت ساقي الواقفة عليها.

اقتربت منه تمشي على ساق واحدة وعكازين أكملت كلامها بهدوء:

ـ ماذا تحب أن أقول لك؟ أهديك قلبي وحبي وعمري، لقد أصبحتَ كل شي في حياتي.

بجدية قائلا:

ـ لا أملك أي رد، في عينيكِ الواسعتين رأيتُ فيهما الأمل، لأن الكلمات التي أسمعها منكِ صادقة، عندي قلب وعندكِ دقاته، لم أستطع التّعبير عن بهجتي بالكلام، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟

جلست الشابة على كرسي في فرح وسرور قائلة:

ـ أهلي يقيمون في مخيم اللاجئين عند مدخل المدينة، يحتميان خلف جدران وحصير وخيام.

أجاب وعلى شفتيه ابتسامة وحب:

ـ وأنا أهلي يقيمون في المخيم الذي يقع في الجهة الثانية من النهر.

قبلها على جبينها وخرج من الغرفة بعد أن امتلأت عيناها بالدموع، عائدا إلى جبهة القتال، على أمل أن

يذهب للقاء والدها، في إجازته الاعتيادية ويطلبها زوجة له.

خرجت الشابة من المستشفى وعادت إلى أهلها في المخيم، ومرت الأيام، وتنتظر بشوق مجيء المقاتل لخطبتها. وفي صبيحة يوم طقسه جميل غيرت ملابسها، تحمل معها أحلامها السعيدة

للوصول الى دنياها الجديدة، استأجرت سيارة أجرة تقلها الى المخيم الثاني، وبعد ساعتين وصلت مقصدها، حاملة باقة الزهور حيث يقيم النازحون واللاجئين بين أحضان الخيام، ترى

الأطفال وهم يلعبون ويقفزون ويركضون بين الأوحال والأطيان والصخور.

أرشدها أحد الشباب النازحين عن خيمة والد المقاتل بعد سؤاله، استقبلها والد المقاتل عند باب الخيمة، بعد السلام قدمت له باقة الزهور، ضمها الى صدره واشتم رائحتها، جلست بجانبه فوق فرشة صغيرة مفروشة على أرضية الخيمة، فهو رجل هاديء يظهر عليه الحزن ولا يفارق قلبه، وحكت له كيف تعرفت على ابنه.

بنبرة حزينة قائلا:

ـ أعلمني أنه قرر الزواج منكِ، ابنتي لقد جئت متأخرة، المقاتل الذي تبحثين عنه ليس في جبهة القتال، إنه يقيم منذ عشرة أيام في مقبرة الشهداء، سَقى بدمائه ارض الوطن، خذي هذه الزهور وضعيها على قبره.

عانقها والده وهو يجهش بالبكاء أسفا وحزنا على استشهاد المقاتل، ودعها حاملة باقة الزهور متجه نحو مقبرة شهداء الأزديين.